حصاد الثقافة 2018

مصر في قبضة حديدية: ثقافة تحت الحصار

القاهرة ــ عايدة الغريب

المشهد عبثي بامتياز. وزارة الثقافة تنهي العام باحتفالية كبرى في مئوية الرئيس الأسبق أنور السادات. لم تكن الاحتفالية من ذلك النوع العابر، الذي تفرضه المناسبة. كانت تأكيداً على أن النظام هنا أقرب في الأفكار إلى نظام السادات ثقافياً وخارجياً وإعلامياً، رغم أنه لا يترك مناسبة إلا بالتأكيد على أنه امتداد لنظام يوليو/ عبد الناصر.

رغم عبثية المشهد، إلا أن دلالته كبيرة. ميلودراما السبعينيات الثقافية، تتكرر في مهزلة أخرى. تفاصيل المشهد الثقافي المصري في لحظته الحاضرة تتطابق مع ما جرى في سبعينيات السادات، حيث شهدت تلك الفترة التغريبة الكبرى للمثقفين المصريين في المنافي المختلفة، سواء من هاجر منهم بجسده منفياً، أو هاجر بإبداعه للنشر خارج مصر (كانت بيروت وبغداد ودمشق قبلة المثقفين المصريين لنشر أعمالهم الإبداعية طوال تلك الأيام). وكانت الصحافة في حصار خانق، الآن يتكرر المشهد أيضاً، وإن كانت وسائل الاتصال الحديثة قد لغت فكرة «المنفى» ذاتها، يبقى عبئها النفسي ومرارتها. في تلك الفترة أيضاً، تمت سيطرة اليمين على منابر العمل الثقافي ونوافذه المختلفة، فظلت مصر بلا مجلة ثقافية واحدة يمكن أن تعبر عما يعتمل في الواقع المصري من أفكار جديدة واتجاهات أدبية.

في 2018، تبدو مصر بلا مجلة ثقافية رسمية واحدة، تماماً كما جرى في السبعينيات، وكانت البدائل وقتها مجلات الماستر. الآن، تبدو مواقع التواصل الاجتماعي أو بعض المحاولات الفردية (مجلة «مرايا») بديلاً لمجلات الدولة المهترئة.

عشرات دور النشر المصرية تعرضت لهجوم أمني بحثاً عن كتب ممنوعة، كان أبرزها مصادرة كتاب «الملاك: حكاية الجاسوس المصري الذي أنقذ إسرائيل» الذي يسرد فيه مؤلفه يوري بارجوزيف، الرواية الإسرائيلية التي تقول إن أشرف مروان كان جاسوساً رفيع المستوى لإسرائيل، وأنّه قدم لها معلومات ووثائق مهمة خلال الفترة التي عمل فيها لمصلحتها. كما تمت مصادرة ديوان «خير نسوان الأرض» لجلال البحيري الذي تم الحكم على صاحبه بالسجن ثلاث سنوات بتهمة الإساءة الى المؤسسة العسكرية. هذه هي المصادرات المعلنة، لكن ما لم يعلن عنه أو توقف نشره في اللحظات الأخيرة كان كثيراً أيضاً. وانتهى الأمر بعدم منح أرقام إيداع الكتب الجديدة، إلا بعد إرسال نص الكتاب مسبقاً، وتعهد من الكاتب بأن ما يتضمنه الكتاب من أفكار يتحمل مسؤوليته، كأن الكتاب الذي يحمل غلافه اسم الكاتب ليس كافياً أو دليلاً. كما توقفت بعض الدور عن الإنتاج الثقافي لأسباب مالية بعد الزيادات الرهيبة في أسعار الورق والأحبار، فنجد أن دراً طليعية مثل «ميريت» لم تصدر إلا عدداً محدوداً من الأعمال لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، كما قلصت الكثير من الدور الأخرى إنتاجها.

وفي محاولة لمزيد من الهيمنة السلطوية، أصدر مجلس الوزراء قراراً بتنظيم المهرجانات والاحتفاليات الثقافية. وبمقتضى هذا القرار، «لا يجوز إقامة مهرجان أو فعالية ثقافية إلا بعد الحصول على ترخيص من وزارة الثقافة، التي تقوم بتشكيل اللجنة العليا الدائمة لتنظيم إقامة المهرجانات والفعاليات الثقافية»، ويعطي القرار الحق للجنة باقتحام الحفلة أثناء فعالياتها، ومراجعة كل برامجها. وهو ما يعني مزيداً من التضييق على الفرق المستقلة أو على الأنشطة الثقافية المستقلة مثل حفلات توقيع الكتب. إذ اشترطت هيئة الكتاب المصرية على دور النشر الراغبة في إقامة حفلات توقيع لكتابها في فعاليات معرض الكتاب القادم (يبدأ في 24 كانون الثاني/ يناير حتى 5 شباط/ فبراير) بإبلاغ الهيئة بعناوين الكتب قبل موعد انعقاد المعرض بثلاثة أشهر، وعدم إقامة الحفلات داخل أجنحة دور النشر وإنما في مكان مخصص لذلك وبأسعار مرتفعة نسبياً، وهو ما أصاب كثيرين بالإحباط، وخاصة أن القواعد الجديدة لمشاركة دور النشر في المعرض دفعت الكثير من الدور المصرية إلى الاعتذار عن عدم المشاركة ودفعت كذلك بائعي الكتب القديمة (سور الأزبكية) إلى الإعلان عن إقامة معرض كتاب موازٍ بأسعار منخفضة، وهو الأمر الذي يهدد معرض الكتاب الذي يحتفل بيوبيله الذهبي في تلك الدورة.

بعيداً عن محاولات الوصاية، يبقى بعض الأمل في كسر الحصار الثقافي. ففي الوقت الذي تستمرّ فيه وزارة الثقافة بالمماطلة في تخصيص متحف لنجيب محفوظ، أعلنت عنه منذ رحيله 2006، إلا أن هامش الثقافة نجح في تسليط الضوء على «عميد الرواية العربية» بعد 12 عاماً على رحيله، وفي مناسبة مرور 30 عاماً على حصوله على جائزة «نوبل». هكذا، أصدرت «دار الساقي» اللبنانية مجموعة قصصية جديدة له بعنوان «همس النجوم» تضمنت نصوصاً لم تنشر من قبل. كما أصدرت «دار العين» كتاب الزميل محمد شعير «أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرمة»، وأصدرت «دار صفصافة» كتاب «30 عاماً في صحبة نجيب محفوظ» للطبيب محمود الشنواني. وأقيم عدد من الندوات حول صاحب «نوبل»، بعيداً عن وصايات المؤسسات الرسمية. حتى إنّ بعضهم اعتبر هذا العام عام نجيب محفوظ بامتياز.

بعضهم رأى أن هذا العام عام نجيب محفوظ بامتياز

كما شهد العام صدور عدد كبير من الكتب والمجموعات القصصية والترجمات المميزة، عاد محمد المخزنجي بثلاثة كتب دفعة واحدة «صياد النسيم»، و«بيانو فاطمة»، و«السعادة في مكان آخر». كما أصدر عدد من الكتّاب الشباب أعمالاً قصصية؛ من بينهم حسن عبد الموجود (حروف فاتنة)، ومنصورة عز الدين (ماوى الغياب)، وطارق إمام (مدينة الحوائط اللانهائية)، ومحمد عبد النبي (كان يا ما كان). كما صدر عدد من الروايات المميزة؛ من بينها «طرق الرب» لشادي لويس، و«قبل أن أنسى أني كنت هنا» لإبراهيم عبد المجيد، و«الخروج من البلاعة» لنائل الطوخي، و«الوصايا» لعادل عصمت، «هنا بدن» لبسمة عبد العزيز، وأخيراً «حروب الرحماء» لإبراهيم عيسى.

شهد العام رحيل عدد بارز من أبرز المثقفين؛ من بينهم صبري موسى صاحب الرواية الشهيرة «فساد الأمكنة»، والناقد سيد البحراوي صاحب «الحداثة التابعة في الثقافة المصرية» الذي اعتبر فيه أن التبعية الذهنية للغرب هي أساس «أزمة الوطن» التي تهدد وجوده، وخاصة أن التبعية لم تعد حكراً على المثقفين بل تعدتها إلى «مجمل الطبقات الشعبية» عبر وسائل الإعلام. كما رحل الناقد وعالم الاقتصاد جلال أمين صاحب «ماذا حدث للمصريين؟»، والمفكر الاشتراكي البارز سمير أمين الذي دفن في باريس وأقام سنواته الأخيرة في داكار في السنغال مديراً لـ«معهد التخطيط والتنمية»، ورئيساً لـ«المنتدى العالمي للبدائل». كما رحل الكاتب والروائي أحمد خالد توفيق، أحد جسور الشباب المهمة لمحبة الكتابة والقراءة من خلال كتاباته الجادّية في أدب الرعب والخيال العلمي، والفانتازيا، فضلاً عن الكتابة الساخرة. كما أسهم في كتابة الرواية الكلاسيكية. ومن أشهر رواياته «يوتوبيا» (2008) التي تحدث عن قيام الأغنياء بتأسيس كومباوندات سكنية محصّنة بالأسلاك الشائكة وكلاب الحراسة، لا يدخلها الفقراء، وإذا اقتربوا يموتون. كما رحل الصحافي لويس جريس أحد مكتشفي الأصوات الأدبية الشابة في مصر في الستينيات. وفي نهاية العام، كان رحيل فنان الأوبرا والمثقف البارز حسن كامي. وقد فجرت وفاته صراعاً على مكتبته التراثية التي يمتلكها في وسط القاهرة، وانتهى الأمر بتأميم وزارة الثقافة للمكتبة بما تتضمنه من مقتنيات في اعتداء صريح على «الملكية الفردية» للأشخاص.

الموسم المغربي أنقذته السينما والشعر... وقارئة صغيرة

الرباط – عبد الرحيم الخصار

لم تعد الثقافة، على ما يبدو، تشكل الحدث في المغرب. ما يُحدث الأثر خلال الفترة الأخيرة في البلد هو الأحداث السياسية والاجتماعية. ليست تلك الأحداث العميقة والمهمة، بل تلك العابرة والسريعة، الشبيهة بعبوة ناسفة، قد لا تقتل، لكنها تترك خلفها الكثير من الدخان. صار الناس مشغولين في المقاهي والحانات وعلى صفحات الفايسبوك وفي تطبيقات الواتساب بالأخبار السريعة، خصوصاً تلك التي تتخذ طابعاً فضائحياً. وقد صارت الأغلبية تنتظر وصولها خبراً بعد آخر كما لو أنها حقن من المورفين.

أما الثقافة وأهلها في المغرب، فقد صاروا، في حماة هذه الحياة الحديثة، وبالتدريج، شبه معزولين عن المجتمع. بل إن هذا المجتمع الذي ينتمون إليه، لم يعد ينتبه إليهم إلا حين تصدر فضيحة في وسطهم، أو يرفع أحدهم نداءً استغاثة قبل الرحيل.

يمكن أن نسمي إجمالاً هذا العام في المغرب عام الفيديوهات المنتشرة، التي تظهر من حين إلى آخر في سلسلة طويلة، على شكل «فضائح» سياسية واجتماعية. حتى إنّ كثيرين صاروا يعتقدون أن هناك من يقف وراء إخراج هذه السلسلة حتى يلهي الناس عن مشاغلهم الحقيقية، وعن التفكير في ما يقع بين أيدي الذين يديرون دواليب هذه البلاد.

ليست هذه الصورة السيئة عن حضور الثقافة في المغرب من باب المبالغة، لكنها نقل موضوعي لما يقع في بلد أغلقت معظم مكتباته المدرسية أبوابها، وضيعت بالتالي على أكثر من جيل فرصة الدنوّ من الكتاب، وحبّ الثقافة. إن ما سبق لا يعني أن الثقافة غائبة تماماً عن الحياة العامة، لكن المفترض أنّ المغرب يحظى باستقرار أمني وسوسيو اقتصادي يخوّل له أن يكون فضاءً حقيقياً لانتعاش الثقافة بشكل أفضل.

اختتم الشاعر اللبناني وديع سعادة الموسم الثقافي بفوزه بـ «جائزة الأركانة» التي يمنحها بيت الشعر في المغرب، والتي صارت تحظى بمكانة كبيرة بين أبرز جوائز الأدب في العالم العربي، خصوصاً أنها تمنح كل سنة لأحد كبار شعراء العالم. فقد سبق أن فاز بها في الدورات السابقة الفرنسي إيف بونفوا، والفلسطيني محمود درويش، والإسباني أنطونيو غامونيدا، والمغربيان محمد السرغيني ومحمد بنطلحة، والصيني بيي ضاو، والبرتغالي نونو جوديس، والألماني فولكر براون وغيرهم. وعلّل بيان الجائزة استحقاق سعادة بكونه «قدّم، طيلة نصف قرن، مُنجزاً شِعرياً متفرّداً أشهم، بجماليته العالية، في إحْداث انْعطافةٍ في مسار قصِيدة النّثر العربيّة وفتَّحها على أفقٍ كوني يحْتفي بالشّخصي والإنساني والحياتي».

والحقيقة أن «بيت الشعر» في المغرب شكل منذ تأسيسه الجهة الأكثر اهتماماً بهذا الجنس الأدبي في البلاد، إذ أصدر هذه السنة عدداً من الأعمال الشعرية لشعراء من أجيال وتوجهات مختلفة، فضلاً عن لقاءات نوعية، من قبيل «الغرفة المضيئة» التي التقى فيها الشعر بالفوتوغرافيا، و«في ضيافة محمود درويش» وهي لقاءات شعرية تحيي الذكرى العاشرة على رحيل صاحب «أوراق الزيتون».

وقد انضاف لبيت الشعر فاعل جديد يعنى بالحقل ذاته، إذ نشطت هذه السنة «دار الشعر» في مراكش ومثيلتها في تطوان في تنظيم لقاءات شعرية وورشات إبداعية للأطفال والطلبة. في سياق الانتصار لجنس أدبي يضيق الخناق حوله بسبب الاهتمام الإعلامي والنقدي بأجناس أخرى. غير أن المغرب يحافظ كلّ سنة على خصيصة فريدة ربما في العالم العربي، وهي أن أعلى نسبة في الكتب الأدبية المطبوعة تكون للشعر سواء المكتوب بلغة فصحى أو دارجة.

2018 كانت أيضاً سنة انتصار للسينما، إذ ضاعفت وزارة الثقافة المبلغ المخصص لدعم المهرجانات السينمائية من 11 مليون درهم خلال سنة 2017، إلى 23 مليون درهم في سنة 2018. كما دعمت الإنتاج السينمائي الوطني بنقل المبلغ المخصص لذلك من 46 مليون درهم خلال سنة 2017، إلى 75 مليون درهم برسم سنة 2018 «بناء على برنامج دقيق وفعال، بالرغم من التراجع الحاصل على مستوى مداخيل صندوق دعم الإنتاج السينمائي».

وكعادته، كان «المهرجان الدولي للشعر» في مراكش أبرز تظاهرة هذه السنة تحتفي بالفن السابع في المغرب. فضلاً عن العروض والندوات المعتادة، شهدت ساحة جامع الفنا لقاءات مباشرة للجمهور مع نجوم السينما، لعل أبرزهم هذه السنة مارتن سكورسيزي وروبرت دي نيرو ومونيكا بيللوتشي.

وتشهد السينما المغربية عاماً بعد عام تقدماً على مستوى الحضور والمشاركات الدولية وارتفاعاً في نسب الأفلام المنتجة والمهرجانات المنظمة.

حركة جديدة عرفها المغرب هذا العام حملت اسم «فلاسفة الشارع» ظهرت مباشرة بعد التضييق الذي تعرض له عدد من فناني الشارع في مدينة الدار البيضاء، أبرزهما الموسيقيان الشابان بدر معتز ومهدي أشتاوي. إذ اعتقلا وصدر في حقهما حكم بالسجن، غير أن نداءات وتظاهرات المتعاطفين معهما ومع فنهما حالت دون التنفيذ. حركة «فلاسفة الشارع» دعت إلى لقاء تشاركي بين مختلف الفاعلين في الحقول الفنية والثقافية والحقوقية للحفاظ على فنون الشارع.

طفلة صغيرة صنعت الحدث في السنة التي نودعها، إذ فازت بالجائزة الأولى في مسابقة «تحدي القراءة» التي أقيمت في الإمارات، متفوقة على أكثر من عشرة ملايين مشارك من بلدان عربية. ويتعلق الأمر بالطفلة مريم أمجون ذات التسع سنوات، وتبلغ مجموع جوائز مسابقة القراءة ثلاثة ملايين دولار موزعة بين الفائزين ومعلميهم والمدارس التي ينتمون إليها.

يشار في النهاية إلى أن الحكومة المغربية قررت هذه السنة رفع ميزانية الثقافة بنسبة ثلاثة في المئة، وهو رقم غير كافٍ للنهوض بالثقافة في بلد تعلن خطاباته الرسمية دائماً أنه ينتمي إلى الحداثة.

اختتم الشاعر اللبناني وديع سعادة الموسم بفوزه بـ «جائزة الأركانة»

التطبيع وجمال خاشقجي و«تأميم» الإعلام المصري!

زينب حاوي

لعل الحدث الأبرز في 2018 على الصعيد العربي بل العالمي، كان اغتيال الصحافي السعودي جمال خاشقجي. في بداية تشرين الأول (أكتوبر)، الماضي، صدم اختفاء الأخير الأوساط الصحافية والسياسية والديبلوماسية. مسار طويل مشت به هذه القضية، وأفرزت انقساماً عمودياً في طريقة تعاطي الإعلام معه. روايات بالجملة، وتضارب معلومات، بشأن الحادثة، التي وقعت في القنصلية السعودية في تركيا. مساران متناقضان ظلّا هذه القضية، فكنا أمام شاشتين تتناتشان الحدث، كل منهما تبعاً لأجندتها. قناة «العربية» عتّمت بداية على الحدث، وحاولت أخذه إلى مكان آخر، لتنقذ من خلاله التورط السعودي في الاغتيال. لكن بعد تأكيد الخبر، تبنت الرواية السعودية، بأن من قام بهذه الجريمة، أجراء «خالفوا الأوامر» الملكية.

في المقابل، أعاد مقتل خاشقجي الزخم لـ «الجزيرة». القناة القطرية، التي انخفضت شعبيتها بعد الأزمة السورية، استعادت مكانتها عربياً، بعد تجنيد شاشتها وأطقمها حول العالم، لتعقب قضية خاشقجي. هكذا، تصدّر الأخير أولويات الشبكة القطرية التي راحت تبثّ أخبار الحادثة على مدار الساعة. كنا إذاً، أمام مشهد منشطر إعلامياً، خلفيته تندرج بالطبع، ضمن الأزمة الخليجية التي فرقت بين قطر والسعودية. المشهد العربي المنقسم، والمتقاسم لروايات مختلفة حول الاغتيال، بدا مختلفاً على الصعيد العالمي. إذ تصدّر خاشقجي أخبار الصحف العالمية، ولا سيما «واشنطن بوست» التي الأمكنة»، والناقد سيد البحراوي كان يكتب فيها مقالاً أسبوعياً في الـ «رأي». الصحيفة الأميركية بذلت جهداً في القضية، وأسهمت من دون أن تدري، في «إيقاظ» ضمير العالم حول ما يحصل في اليمن. بعد التأكد من خبر اغتيال خاشقجي، راحت الصحيفة، ووسائل إعلامية غربية أخرى، تحوّل الأنظار الى الإبادة التي تحصل في اليمن، من مجاعات وأوبئة وموت مجاني للأطفال. هكذا، «ساهمت» دماء خاشقجي في إحداث صحوة عالمية متأخرة في هذه البقعة المنسية والمدمرة من العالم. واللافت تعاطي وكالة «رويترز»، مع القضية. الوكالة حظيت أولاً، بسبق صحافي تمثل في دخولها القنصلية، بعد خمسة أيام من حادثة الاختفاء، لتجري حديثاً مع القنصل السعودي، ولتجول بكاميرتها، في سبيل التأكيد أن المملكة لا يد لها في هذه الجريمة. لاحقاً، وتماشياً مع الخط السياسي السعودي، نشرت الوكالة العالمية الرواية السعودية، التي تفيد بأن خاشقجي «توفي نتيجة شجار» بينه وبين 15 شخصاً أتوا من المملكة خصيصاً لتصفيته!

هذا العام أيضاً، كنا أمام حدث نوعي، تجلى في السماح للمرأة السعودية بقيادة السيارة. في حزيران (يونيو) الماضي، بدأ سريان هذا القرار، وبدأ معه التطبيل لمرحلة مختلفة دخلت فيها المملكة. الحدث الذي وصف بـ «الاستثنائي»، و«التاريخي»، تجنّدت له وسائل إعلام سعودية، وغربية أيضاً. كنا أمام صناعة صورة لولي العهد السعودي محمد بن سلمان، تصفه بـ «الأمير الإصلاحي»، وتختصر ما حصل في المملكة بـ «الثورة». علماً بأن العديد من الناشطات السعوديات ما زلن يرزحن في أقبية المملكة، فقط لأنهنّ كنّ رائدات في المطالبة بأبسط الحقوق في القيادة والحرية الشخصية. هكذا، للمرة الأولى، نسختها العربية لعدد حزيران (يونيو)، للأميرة هيفاء بنت عبد الله آل سعود التي نشرت صورتها على غلاف العدد. ظهرت الأخيرة خلف مقود سيارة مكشوفة، ترتدي ثوباً أبيض طويلاً، وأكدت في حديث داخل المجلة أنها «تؤيد التغيير في بلادها». بعد «فوغ»، انبرت بعض الوجوه اللبنانية لاقتناص الحدث السعودي. على سبيل المثال، صوّرت المغنية هبة طوجي كليباً غنائياً لـ «مين اللي بختار» (كلمات غدي الرحباني- ألحان أسامة الرحباني)، وأهدته إلى المرأة السعودية. لكن في طريقها إلى الاحتفال بهذا «التحرر»، خلطت طوجي بين قيادة السيارة، وارتداء الحجاب، فصورت على أن خلعه أيضاً يأتي ضمن عملية «إصلاحية ملكية»! الممثلة نادين نجيم، بدورها، استغلت الحدث، وهنأت المرأة السعودية على طريقتها، لكن في نهاية المطاف، ظهر أن كل كلامها، كان ضمن إعلان مدفوع لكبريات شركات السيارات في العالم. ومن قيادة المرأة السعودية للسيارة، إلى الحدث الأقسى والأكثر تظهيراً على الإعلام السعودي: إنه التطبيع مع العدو الصهيوني. في تموز (يوليو) الماضي، يمكن توثيق هذه الفترة بأنها تسجيل لمرحلة علنية ومختلفة من الصراع مع العدو. في هذا التاريخ، تجرأت «العربية» على بثّ وثائقي «النكبة» الذي يتبنى السردية الصهيونية لاحتلال فلسطين. وثائقي من جزءين، يسرد «مظلومية اليهود» في أوروبا، وانعدام السبل أمامهم لإيجاد «وطن لهم». شريطان يقصيان تماماً التنكيل والمجازر التي ارتكبها الصهاينة بحق الفلسطينيين وأرضهم.

لعلّ العبارة الأبرز في الوثائقي، ما قاله المعلق «ولدت دولة إسرائيل... أصبح الحلم حقيقة»! وثائقي جرّ بعده تورط شخصيات ثقافية، رياضية، ورسمية عربية في التطبيع مع الصهاينة، بشكل علني، وسط تراجع الاهتمام بالشأن الفلسطيني إعلامياً، حتى في ذروة نضاله أيام مسيرات العودة في أيار (مايو) الماضي.

ومن المملكة إلى إيران.

منذ عام 2009، وشبكة «bbc عربي» ممنوعة الدخول إلى أراضيها. هذا الأمر كسر في أيلول (سبتمبر)، الماضي، حين دخلت الشبكة البريطانية بجناحيها الإنكليزي والعربي إلى الأراضي الإيرانية، من بوابة أصفهان.

سلسلة تقارير بثتها «bbc عربي» وقتها (إعداد مراسل الشبكة للشؤون الإيرانية علي هاشم)، عن هذه المدينة تحمل طابعاً إنسانياً، بيئياً، وعمرانياً، لتدشن بعدها مرحلة جديدة، بين الشبكة والجمهورية الإسلامية. مصيراً، كان البارز هذا العام، الأزمة التي ضربت الدراما المصرية، وأسواق الإنتاج، إلى حد توقع العديد من أهل الفن أن يكون الموسم الرمضاني كارثياً على العاملين فيه، بسبب إطباق النظام المصري على الإعلام و«تأميمه». إذ استحوذت مجموعة «إعلام المصريين» المملوكة لجهاز المخابرات المصري، على شبكات «أون. تي. في»، و cbc، والسوق الإعلاني لقناة dmc، وبالتالي تحكّم النظام بأسعار المسلسلات، وبالأجور وبسوق الإعلانات، مغيّباً المنافسة في هذا المجال. الصوت الواحد السائد على كل المنابر الإعلامية أسهم في «تطفيش» ملايين المشاهدين، وانسحاب أسماء فنية كبيرة من المنافسة الدرامية، أمثال يحيى الفخراني، وياسر جلال، وياسمين عبد العزيز، وتوقف مشاريع كان منويّاً عرضها في رمضان أمثال «جميلة وإبن السلطان» (تؤدي دور بطولته هند صبري)، و«ملائكة إبليس» (غادة عادل)، مع قبول لبعض النجوم بأجور منخفضة. على الصعيد المصري أيضاً، انطفأ في تشرين الثاني (نوفمبر) الإعلامي الكبير حمدي قنديل (82 عاماً). غياب قنديل خلّف فراغاً كبيراً على الساحة الإعلامية لمشاكس في زمن التزلف والانبطاح. الإعلامي الذي دفع مراراً ثمن كلمته وجرأته وشجاعته على الشاشات العربية، يمثل بلا شكّ وجهاً مضيئاً من التجربة الإعلامية العربية، التي ظلت لصيقة بقضايا الإنسان، والمقاومة وفلسطين.

الحدث الأبرز على الصعيد العربي، بل العالمي، كان اغتيال الصحافي السعودي جمال خاشقجي

كابوس الـ «ستريمينغ» والأخبار الكاذبة يؤرق الإعلام الغربي

نادين كنعان

لم يختلف واقع الميديا الأجنبية كثيراً هذه السنة، وإن كانت الاعتداءات على الصحافيين آخذة في الارتفاع. واقع مأزوم يعيشه أهل «مهنة المتاعب»، دفع بمجلة الـ«تايم» الأميركية إلى اختيار مجموعة منهم كـ«شخصية العام» لـ 2018 نظراً إلى «المخاطر الكبيرة التي تكبّدوها في ملاحقة الحقيقة، والسعي من أجل نشرها، وإن كانت غير كاملة». تحت عنوان «الحرّاس، والحرب على الحقيقة»، أفردت المجلة أربعة أغلفة منفصلة لكل من الصحافي السعودي جمال خاشقجي، والصحافية الفيليبينية ماريا ريسا، محرّرة موقع «فيليبين نيوز»، والصحافيَّين البورميَّين من وكالة «رويترز» وا لون وكياو سوي او، المسجونَيْن بعدما أدانتهما حكومة ميانمار في أيلول (سبتمبر) الماضي بـ«انتهاك قانون الأسرار الرسميّة»، فضلاً عن رئاسة تحرير صحيفة «كابيتال غازيت» الأميركية التي خسرت خمسة من أعضائها في هجوم شهدته أنابوليس في ولاية ميريلاند في الصيف.

منذ اختفائه، وقبل الإعلان عن مقتله، شغلت قضية خاشقجي الرأي العام الأجنبي، حتى إنّ الحملة الإعلاميّة الغربيّة كانت شديدة الاتساع والحدّة. في مقال نشره في «الأخبار» تحت عنوان «قضيّة جمال خاشقجي: بين الإعلام العربي والغربي»، أشار الزميل أسعد أبو خليل إلى أنّ السرديّات كادت «تنتزع سنة جمال الأخيرة وتجعلها اختزالاً لحياة طويلة في الإعلام والسياسة والدعاية لأمراء آل سعود»، مشدداً على أنّ التبنّي الكبير له بعد وفاته من قبل الإعلام السائد أميركياً قد «يحمل في طيّاته أيضاً أجندة غير إعلاميّة»، ولا سيّما مع تحوّل «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» إلى «إذاعة دولة الاستخبارات الأميركيّة في عهد الرئيس دونالد ترامب».

الاهتمام الغربي بالمنطقة أخذ شكلاً آخر، وتمثّل بإعلان صحيفة الـ«إندبندنت» البريطانية تمدّدها إلى الشرق الأوسط وباكستان عبر أربعة مواقع إلكترونية جديدة ناطقة باللغات: العربية والتركية والفارسية والأردية. جاء ذلك في إطار «صفقة ترخيص حصرية» فازت بها «المجموعة السعودية للأبحاث والتسويق» (SRMG) التي تأسست في 1988، وتملك مجموعة من الصحف والمجلات والمنصات الإلكترونية (من بينها «سيّدتي» و«الجميلة» و«هي»...)، بالإضافة إلى زيادة نشاطها في 2016 مع دمج قناة «العربية» الإخبارية وشبكة mbc وجريدة «الشرق الأوسط» تحت مظلّتها.

المواقع الإخبارية والسوشال ميديا لا تزال مصادر رئيسة للحصول على المعلومات، في ظل استمرار المخاوف من سيطرة الأخبار الكاذبة مع مواصلة العمل لمكافحتها. هنا، تجدر الإشارة إلى اعتراف مجلة «دير شبيغل» الألمانية أخيراً بأنّ الصحافي كلاس ريلوتيوس (33 عاماً) لفّق قصصاً من نسج خياله في 14 من أصل 60 موضوعاً نشرها في المجلة خلال السنوات السبع الأخيرة. المعركة بين ترامب والميديا في بلاده تزداد حماوة. في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي، انضمت مجموعات إعلامية أميركية عدّة إلى المعركة القضائية التي تخوضها «سي ان ان» لإعادة تصريح كبير مراسليها في البيت الأبيض جيم أكوستا الذي طُرد إثر سجال حاد مع الرئيس خلال مؤتمر صحافي.

أما التحرّش الجنسي فلا يزال الشغل الشاغل للإعلام الغربي، مع تزايد الفضائح وانتشارها خارج حدود هوليوود والمؤسسات الإعلامية الكبرى. مثلاً، حُكم على الممثل الكوميدي بيل كوسبي بالسجن عشرة أعوام بعد إدانته بالاعتداء الجنسي، كما هزّت «الأكاديمية السويدية» فضيحة اتهام المفكّر الفرنسي جان كلود أرنو بالاغتصاب، وهو زوج الشاعرة والكاتبة المسرحية كاتارينا فروستنسون، التي استقالت بعد البلبلة. قبل أن يحكم القضاء السويدي على أرنو بالسجن عامين.

في سياق منفصل، لا يزال كابوس الـ«ستريمينغ» يؤرق الإعلام التقليدي في الغرب. وقد أعلنت «هيئة تنظيم شؤون البث الإذاعي والتلفزيوني» في بريطانيا (ofcom) في نهاية تشرين الأوّل (أكتوبر) الماضي أنّ «هيئة الإذاعة البريطانية» تواجه أزمة «وجودية» نتيجة فشلها في الوصول إلى الفئات العمرية الشابة في ظلّ المنافسة التي تواجهها من قبل المنافسين التجاريين وخدمات البث عبر الإنترنت كـ«يوتيوب» و«نتفليكس». الواقع أميركياً ليس أفضل، إذ سجّل ثلاثة مزوّدي خدمة التلفزة المدفوعة في نهاية نيسان (أبريل) تراجعاً دراماتيكياً في أعداد الاشتراكات في باقات الكابل والستالايت التابعة لها، تزامناً مع تقارير اقتصادية تُظهر نموّاً كبيراً في خدمات البث عبر الإنترنت.